بين المعري وداعي الدعاة[1]

٤ — أثر هذه الرسائل

في تسويء سمعة المعري

«وقبل وبعد، فأنا أعتذر عن سر له أذعته، وزمان بالكتابة والاجابة شغلته، فإني — من حيث ما تقته — ضررته»
«داعي الدعاة».

صورة أبي العلاء المعري
كما تخيله جبران خليل جبران

وهكذا أصدر داعي الدعاة قرار الاتهام من أعلى منصة تشريعية في ذلك الزمن النكود، وأصدر داعي الدعاة حكمه بادانة المعري الذي مات قبل أن يبلغه نص الحكم فلم يستطع له مناقشة أو استئنافاً بعد أن أصبح في عالم الخلود. وحملت جمهرة الناس هذا الحكم وصفق له طرباً الأغرار وذوو المآرب والحاجات والاحقاد جميعاً. وقد أصدر داعي الدعاة حكمه في صيغة الاعتذار ودس فيه الاتهام صريحاً لا مواربة فيه ولا لبس

داعي الدعاة يعتذر للمعري عن كشف أسراره وإذاعة عقيدته اغفالا — عن غير قصد — وهو الذي لم يكتب رسائله إلا ليتوصل بكل حرف منها إلى هذه الغاية — كما أسلفنا القول — وبم يعتذر داعي الدعاة؟ وما هي تلك الاسرار الخطيرة التي كشفها؟ وأي كلام قاله المعري في رسائله هذه من غير أن يوجزه مرة ويفصله أخرى في لزومياته وغفرانه وغيرهما من عيون آثاره؟. ولكن داعي الدعاة — الذي ظهر عجزه واضحاً في اقامة دليل واضح يثبت به دعاواه — قد أفلح في زعمه أنه هتك أستار المعري واذاع من مستوره ما كان يحرص كل الحرص على اخفائه. فتوهم البسطاء — من معاصريه وغير معاصريه على السواء — أن عقيدة المعري زائفة لا محالة، والا فلم كان يسترها؟ وحسبوا أن المعري كان يخفي عقيدته حتى جاء داعي الدعاة فأزاح عنها الأستار وهتك عنها الحجب فإذا المعري الذي يميل الى التقية زنديق فاجر!

(١) راجع مقتطف يونيو ونوفمبر ١٩٣٠ ويناير ١٩٣١

ومن الذي أصدر هذا الحكم القاسي على المعري؟ هو رجل له مظهر رائع ومخبر خبيث ، فأما مظهره الرائع فهو أنه داعي الدعاة «الذي تلي رتبته قاضي القضاة والذي يتزيا بزيه في الناس وغيره وينوب عنه ايضاً، والذي يحيط علمه بجميع مذاهب أهل البيت ويقرأ عليه ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم، والذي بين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً، وله نواب كنواب الحاكم في سائر البلاد ، والذي يحضر اليه فقهاء الدولة وعلماؤها في مكان يطلقون عليه «دار العلم»، ولجماعة منهم — على التصدير بها — ارزاق واسعة، ووظيفته — كما يقولون — من مفردات الدولة الفاطمية»

هذا هو مظهر داعي الدعاة الذي يطالع جمهرة الناس وسوادهم أخاذاً رائعاً، وهذا هو جاهه الذي تخلع امامه قلوب المتملقين ذوي المنافع وتزيغ أبصارهم حين يفيء لهم بريقه وسناه.

أما مخبره ، فقد فصلناه بعض التفصيل في مقالنا الاول وأظهرنا طريقته الخبيثة التي كان يسلكها في زلزلة عقائد المسلمين وسلخهم عن دينهم بما أوتيه من قدرة شيطانية بارعة جعلت المعري يبرّض به مراراً في لزومياته مما أثار حقده عليه ودفعه الى مقابلة الشر بالشر والعدوان بالعدوان ، فراح يدبج هذه الرسائل المنمقة ليصل الى غايته التي كان يتحرق شوقاً إليها — وهي تسويء سمعة المعري — وقد نجح في ذلك كل النجاح

فأنت ترى حقيقة هذا الرجل الذي أفلح في تسويء سمعة أبي العلاء ، وترى أنه رجل لا عمل له الا تضليل الناس وزعزعة عقائدهم ليبث فيها سموم المذهب الباطني، وأنت ترى أن داعي الدعاة هو أجدر من ينطبق عليه قول المعري :

جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا أن الصغائر تجني الخلد في النار[1]

والناس قلما يعنون بحقيقة من يصدر الحكم ، وإن عنوا بمظهره ورفعة منصبه، وحسبهم أن يتلقفوا الحكم من القاضي[2] قضية مسلمة — مهما بعد عن الصواب — حتى يصدر حكم آخر من مقام أرفع فينقض سابقه

---

(١) وقريب من هذا المعنى قول المعري :

يعيب أناس ان قوماً تمرضوا بعمامهم نصب العيون الشوازر

لقد افلحوا ان كان لم يجر عندهم من الوزر الا تركهم للمآزر

(٢) وقد ابدع الكاتب الانجليزي الذائع الصيت « برنارد شو » في تحليل هذا الرأي في روايته « Getting Married » فذكر حواراً بين زوج يريد ان يفسخ عقد الزواج وآخر يتشبث بتحريم ذلك « لان ما يعقده الرب لا يحله العبد » فيقول له الزوج « ولكن القسيس الذي عقد الزواج عبد مثلنا » فيجيبه : « ولكنه يمثل سلطة الرب » وتنقد المناقشة بنفد صبر الزوج ويقول له : « لقد خلع هذا القسيس بسبب تهتكه وسوء سلوكه ، ولا يزال ما عقده ثابتاً لا تستطيع ان تنقضه »

وهذا مثال واضح من احترام الجمهور للحكم أياً كان مصدره

على أن الشر أعلق بالنفوس وألصق وأكثر اذاعة من الخير ، والمعري خصوم يلتمسون له سقطة يملأون بها الدنيا ويقيمونها ويقعدونها ، والجمهور لا صبر له على متابعة تفاصيل المناقشة الدقيقة والحكم عليها بنفسه ، وحسب المناظر اللبق أن يزعم لنفسه الفوز ويسجله ثم يتظاهر برحمة مناظره والاسف على ما لحقه من خذلان ، فينخدع بكلامه الجمهور ويعتقد أنه غالب منتصر . وهذا ما فعله داعي الدعاة . وقد مات المعري قبل أن يقرأ الرسالة الاخيرة فلم يستطع أن يفند مزاعم خصمه في الانتصار عليه

ولقد كان كثير من الناس يشغلون أنفسهم بتعرف عقيدة المعري ويميل بعضهم الى تكفيره كما يميل آخرون منهم الى حسن الظن بدينه وعقيدته حتى جاءت هذه الرسائل فرجحت كفة الاتهام أيما رجحان ، ولسنا نزعم ان هذه الرسائل هي وحدها التي سوأت سمعة المعري ، ولكننا نميل الى الزعم بأنها كانت من أكبر الاسباب التي تضافرت على خلق هذا الجو المكفر حول عقيدته . وقد خدع ياقوت — في جملة من خدع — بهذه الرسائل ، وظهر تحامله على المعري واضحاً في مناسبات كثيرة ، فشتم المعري وسفه آراءه وقال مرة : « ان المعري حمار » ، ولما لخص رسائله هذه قال في مقدمة تلخيصه :

« ونقلها على هذا الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاصح المعري وتشدقه » ولم يقل « دون تفاصح داعي الدعاة وتشدقه » أو على الاقل : « دون تفاصحهما معاً » . فيتقي بذلك تهمة التحيز والهوى . والعجب أن ياقوت الرومي — على فضله — لا يكاد يدع فرصة يذكر فيها اسم المعري حتى يشتمه او ينقصه ، فاذا روى المعري — وهو الحجة الثبت الصادق في روايته الذي عرف بالامانة والدقة وسعة الاطلاع — بعض أبيات قالها احد اليهود في الخليفة عمر[1] علق عليها ياقوت بقوله :

« وهذا يشبه ان يكون شعر المعري قد نحله هذا اليهودي ، او ان ايراده لمثل هذا واستلذاذه به من امارات سوء عقيدته وقبح مذهبه »

(١) يعني قول المعري في رسالة الغفران : « ولما أجلى عمر بن الخطاب اهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين ، فيقال ان رجلا من « يهود خيبر » يعرف بسمير بن أدكن ، قال في ذلك :

« يصول أبو حفص علينا بدرة … رويدك ، ان المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط … لتشبع ، ان الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ، ما ظهرتم … علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم الى اليمن ، فاعرفوا … لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا — في طريقنا — … وبغيتكم ان تسودوا وترهبوا »

وهذا الخبر — كما يراه القارىء طبيعي — والابيات لا يستبعد صدورها من يهودي موتور أجلاه الخليفة هو وقومه عن جزيرة العرب ، والمعري ذكر الخبر وقبله كلمة « يقال » ثم لا يزيد ، ولكن ياقوت لا يريد أن يقتنع ويأبى الا اتهام شيخ المعرة بسوء النية والتلفيق

أرأيت الى اي مدى تعسف ياقوت في حكمه واشتط ؟ ولكنه الهوى :

وآفة الرأي الهوى ، فمن غلا على هواه عقله فقد نجا

* * *

وقد أورد ياقوت — في كتابه «معجم ياقوت» شيئاً من اخبار الزارين على المعري وذكر حين تكلم عن ذي الفضائل[1] ما يأتي : قرأت في ديوان شعره بخطه : انشدت لابي العلاء :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت ، والمجوس مضلله
اثنان أهل الارض ، ذو عقل بلا دين وآخر ديّن لا عقل له

فقلت مجيباً له : الدين آخذه وتاركه لم يخف رشدها وغيها
اثنان اهل الارض قلت فقل يا شيخ سوء أنت ايها

والبيتان «هفت الحنيفة» لا يفهم منهما هذا الفهم الذي فهمه «ذو الفضائل» وأقره ياقوت فأثبته من غير مناقشة ، وما أجدر من يتصدى لنقد المعري ان يتقصى معانيه حتى لا تزل قدمه، فان المعري كثيراً ما يطرق المعنى بطرق وأساليب شتى — يوضح بعضها بعضاً — وكثيراً ما يظهر المعنى خفيًّا في بعض اياته جليًّا في الاخرى : وليس من الانصاف ان تفهم كلامه فهماً سطحيًّا ثم تشنع عليه بعد ذلك من غير حق

والمعري لا يريد أن يقول إن كل متدين لا عقل له وان كل عاقل غير متدين، ولكنه يأسف لانه يرى اكثر المتدينين مقلدين لا يحكمون العقل ، وأكثر من يحكمون العقل يتغالون فلا يأخذون بأسباب الدين : وقد قال المعري في لزومياته : «كن ديناً ولبيباً» وقال في مكان آخر منها :

اذا كان التقى بلهاً وعيًّا فأعيار المذلة أتقياء

وهو يعني بالحنيفة اتباعها، فهو يقول «هفا المسلمون والنصارى واليهود والمجوس وضلوا عن طريق الحق والصواب » وهذا كلام لا غبار عليه، فهو يرى الناس شرًّا لا خير فيه، وقد قال في موضع آخر من لزومياته ما يوضح قوله : «هفت الحنيفة» وهو قوله :

كتاب محمد وكتاب موسى وانجيل ابن مريم والزبور
هدت امماً فما قبلت وبارت نصيحتها ، فكل القوم بور

الى آخر هذه الاقوال التي يطول بنا الكلام اذا ذكرناها

---

(١) وهو من ادباء القرن السادس ، توفي سنة ٥٢٨ هـ

وليس ياقوت وحده هو المتحامل على المعري فله أشباه ونظائر كثيرون ، فقد سمع «ابن ابي كدية» قائلاً ينشد قول المعري :

« ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية ان يبكوا
تحطمنا الايام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك »

فقال ابن ابي كدية :

« كذبت وبيت الله حلفة صادق سيبكنا بعد الردى من له الملك
ونرجع أجساماً صحاحاً سليمة تعارف في الفردوس، ماعندنا شك »

والبيتان — على ما فيهما من ضعف وركاكة — يدلان على تعسف في فهم كلام المعري الذي لم يتعرض فيهما لذكر الآخرة [1] ، فهو يقول : ان الموت هو آخر الحياة وان غرور الناس ينسيهم هذه الحقيقة على بساطتها فيجعلهم يتخيلونه رحلة هينة قصيرة المدى كما يقول في بعض اباته :

« يوصي الفتى عند الحمام كأنه يروح ليقضي حاجة ويعود »

وهو يريد أن يقول لهؤلاء الناس : «كلا لن تعودوا الى الحياة مرة أخرى فأقلوا من اطماعكم في الدنيا وحرصكم عليها فأنتم زجاج لا يعاد له سبك ولا امل لكم في العودة فلا توصوا فهي رحلة لا عودة لكم منها ». وما نريد ان ندافع عن المعري ، ولكنا نريد ان نبين للقارىء تحامل ناقديه عليه وتعسفهم في نقده

* * *

ولقد لقي المعري الاهوال وكيلت له التهم — من معاصريه وغيرهم على السواء — وأغرى بعض الولاة بتعذيبه [2] واتهمه بعض معاصريه « بأنه وضع كتاب الفصول والغايات في معارضة القرآن» ورماه غيرهم بالالحاد . وقال ابن الجوزي في كتابه : «تلبيس ابليس» ما يأتي : « ومن زنادقة الاسلام من لم يبرح على تمزه فقاته الدنيا والآخرة مثل ابن الراوندي والمعري» . وقال الذهبي : «والمعري صاحب التصانيف المشهورة والزندقة المأثورة ، وله رسالة الغفران قد احتوت على مزدكة واستخفاف »

---

(١) وقد قال المعري في معنى البيت الاول :

« اعن بأسكيا لج في حزنه وسل ضاحك القوم : مم ابتهج ؟ »

وقال ايضاً : « يسمى سروراً جاهل متغرض بفيه البرى ، هل في الزمان سرور ؟ »

ويوضح معنى البيت الثاني قوله :

« أفطر وصم ، أو صم وأفطر جاهداً صوم المنية ما له إفطار »

(٢) وفي ذلك يقول :

كأني كل حول محدث حدثاً يرى به من قول ، المصر اغرابي»

الى آخر هذه المزاعم التي يطول بنا الكلام اذا ذكرناها وناقشناها ، وحسبنا ان نقول: إن المعري كان مفتوناً بالقرآن وأسلوبه،وقد كتب في رسالة الغفران نفسها أروع وأبلغ ما يكتبه انسان في وصف القرآن وشنع على من تصدى لمحاكاته ، وقد حمل على ابن الراوندي حملة شعواء وسفهه كل التسفيه لاستخفافه بالدين وتصديه الى محاكاة القرآن وقد نقد المعري آراء المزدكية بأبلغ حجة وأقوى بيان،ونَدد بإباحتهم بصراحة لا مواربة فيها فقال مرة :

شر النساء مشاعات يكنّ لنا   كالارض يحملن أبناء مشاعينا

وقال في مناسبة أخرى :

أقـرُّوا بالاله وأثبتوهُ   وقالوا : « لا نبي ولا كتاب »
ووطء بناتنا(1) حلٌّ مباحٌ   رويدكمُ فقد بطل العتاب
تمادوا في الضلال ولم يتوبوا   ولو سمعوا صليل السيف تابوا

* * *

وبعد فقد شغل الناس بعقيدة المعري وفلسفته كما شغلوا بشعر المتنبي وشاعريته ، واختلفوا في ذلك اختلافاً شديداً بلغت مسافته من النقيض الى النقيض . ولا بدع في ذلك فقد الف الناس ان يشتغلوا بالعظائم ويختلفوا في تقديره . وقد خلد ذكر المعري — رغم أنف حاسديه — وضاع ذكر داعي الدعاة في غمار الخاملين والمجهولين ، حتى ليصعب على الباحث المؤرخ أن يعرف من هو « أبو نصر هبة الله بن موسى » شاغل منصب داعي الدعاة وما هي آثاره العلمية أو الادبية ، وان كان من اليسير أن يعرف الكثير عن منصب داعي الدعاة الذي شغله « أبو نصر » هذا وغيره من المناصب الدينية الذين لا قيمة لهم إلاّ بمناصبهم الرفيعة وجاههم العظيم

القاهرة   كامل كيلاني

---

(١) يشير المعري بهذا الى قول هذه الفئة — وقد اتهمه المعري في رسالة الغفران — ويروى ان فتاتهم كانت تضرب بالدف وتقول :

خذي الدف يا هذه واضربي   وغني فضائل هذا النبي
تولى نبي بني هاشم   وجاء نبي بني يعرب
فلا تبتغي السعي عند الصفا   ولا زورة القبر في يثرب
اذا القوم صلوا فلا تنهضي   وان صوموا فكلي واشربي
ولا تحرمي نفسك المؤمنين   من اقربين ومن اجنبي
فكيف حللت لذاك الغريب   وصرت محرمة للاب
أليس الغراس لمن ربه   ورواه في عامه المجدب
وما الخمر الا كماء السحاب   طلق فقدست من مذهب

وقد شفع المعري رواية هذه الابيات بلعن قائليها